الانتقال من الحرب إلى السلم

لحضرة صاحب السعادة زكريا مهران باشا

ستنتهي هذه الحرب بعد وقت إما طال أو قصر . ثم تعقبها فترة انتقال من الحرب إلى السلم . وهي فترة مليئة بالحوادث الجسام لانقل في نتائجها الخطيرة عن نتائج الحرب نفسها . تلك فترة مفعمة بالمعضلات تبدأ بتصفية آثار الحرب وتنتهي حين يستقر الجديد من النظم والأوضاع التي يتمخض عنها هذا الصراع العنيف من مشكلات سياسية واجتماعية واقتصادية. فالحروب دائما مراحل تطور في المدنيات لما يصاحبها في تغيير من عقائد الأفراد والجماعات .

أما في صدد الاجتماع والسياسة فقد أخذ الساسة يتحدثون عن الحريات الاربع. وأما في صدد الاقتصاد فاننا نرى المؤتمرات تعقد بين وقت وآخر قصد مكافحة الغلاء وكبح التضخم واجتناب الاخطاء التي حدثت عقب الحرب الماضية وكانت منها الكوارث والأزمات .

ونقرأ أيضا لكتاب الغرب بحوثا طيبة عن الانتقال من الحرب إلى السلم . وهم يعنون فيها بمستقبل الجنود بعد تسريحهم وما يطالب به العمال من إصلاح حالهم وتأمينهم ضد البطالة والمرض والشيخوخة . ويبصر هؤلاء الكتاب أقوامهم بما تستهدف له التجارة بعد الحرب من عقبات وما تتعرض له الصناعة من منافسات تؤدي بها إلى البوار في بعض الأحيان ، وما ينوء به عاتق الميزانيات من ديون تثقل كاهلها وقد تعجزها عن السداد .

تلك هي أهم المسائل التي يتناولها بالبحث ساسة الغرب وكتاب الاقتصاد فيه ؛ يقابلها من ناحيتنا مسائل يجب أن نعنى ببحثها وتدبير الحلول العملية لها . وهذه المسائل تتلخص في كون الحرب قد سببت زيادة في النقود عندنا إلى حد رفع الأسعار وأضرت بالموظفين والاجراء وذوي المرتبات الثابتة. ثم إن الحرب أوجدت في مصر جيشا من العمال والصناع المهرة المدربين يجب أن نستفيد منهم وأن نوفر لهم العمل عند تسريحهم . ومن ناحية أخرى فان القطن فيما أعتقد مستقبله محفوف بالمكاره . وفضلا عن هذا كله فإن مصر قد قطعت شوطا طيبا في مضمار الصناعة منذ الحرب الماضية . فلما جاءت الحرب الحاضرة مكنتها من ترقية الصناعات التي كانت قائمة وخلق صناعات أخرى .

إننا إذا قارنا موقفنا بموقف الدول الأخرى فاننا نحمد الله أن وقانا شر الحرب وجعل بلادنا تخرج منها دائنة بعد أن كانت مدينة . وستكون ظروفنا بإذن الله أفضل من ظروف كثير من الدول الاخرى إذا أحسنا القيام عليها .

المال وفير قد استودعه أصحابه البنوك في انتظار مستغل له . والأيدي العاملة قد كثرت عندنا ونالت التجارب والمران . والشباب متوثب يتقد جرأة وإقداما . ومن ثم فلا عذر لنا اذا تقاعسنا عن استكمال نهضتنا أو فرطنا فيها .

أرأيت كيف كنا بالأمس تنهب الأعمال الحرة ونحسب الأقدار قد كتبت على مصر أن تكون بلدا زراعيا تصديقا مما لما بثته فينا السياسة من قالة استطاع المغفور له طلعت باشا حرب أن يدحضها وأن يقيم الدليل عمليا على فسادها يوم نهض بصناعات مصرية و برءوس أموال مصرية صميمة ؟

لا أريد أن يفهم من كلامي أني أدعو الى أهمال شأن الزراعة ، إنما أريد أن تكون مصر بلدا يجمع بين الزراعة والصناعة ، لأن مستقبل الزراعة و بخاصة القطن مظلم لا يجيز الاعتماد عليه . وقد قرأنا في التلغرافات أن الغزالين قد أخذوا يقبلون على القطن القصير التيلة ، لرخص ثمنه ، وأن الحرير الصناعي قد ارتقى الى درجة زاحم فيها القطن وهدده بأوخم العواقب .

لا يمكن لمصر المستقلة أن تعتمد على الزراعة وحدها ، فلا يصون الاستقلال ويدعمه غير الصناعة . وقد أثبت تاريخها أنها كانت تجمع بين الزراعة والصناعة وأن الصناعة كانت تزدهر فيها كلما استقلت فإن غلبها فاتح على أمرها اتخذها مزرعة تقدم له الحبوب والمواد الأولية .

من واجبنا أن ندرك ذلك وأن نستغل الأموال الموزعة الآن في البنوك وعند الشركات — وهي لا تقدر بأقل من ٣٥٠ مليون جنيه — في ترقية الصناعات التي ثبت نجاحها عندنا أو تكون بلادنا في حاجة اليها .

لقد مضى الوقت الذي كانت فيه نستغل أموالنا في شراء الأراضي الزراعية المرتفعة الأثمان المعرضة للازمات بين وقت وآخر فضلا عن متاعب الإدارة و لخير لمن يملك منا أرضا أن يساهم في الشركات حتى يضمن إيرادا في الثروتين العقارية والمنقولة . اذا اختص دخل أحدهما اعتمد على دخل الأخرى . يهمني في هذا المقام أن أدعو الى الاكثار من الشركات وخصوصا المساهمة ، لأن ثروة الفرد أو القليل من الأفراد مهما عظمت لا يمكنها أن تؤسس شركات تثبت في المستقبل لمنافسة الشركات العتيدة في البلاد الأخرى ، تلك الشركات التي تعتمد على رؤوس أموال ضخمة يديرها دهاة محنكون قد حذقوا فنون التجارة والصناعة .

لقد كانت بمصر بيوت تجارية وصناعية عامرة أقامها عصاميون . فلما ماتوا اندثرت هذه البيوت لأن أولادهم لم يرثوا مواهب آبائهم . وأني لأجد من واجبي بهذه المناسبة أن أدعو جميع المصريين الذين أصابوا نجاحا في هذه الحرب في الأعمال الحرة أن يحولوها الى شركات مساهمة . ففي ذلك نفع لهم ولورثتهم من بعدهم ، وحفظ لمؤسساتهم التي نرجو لها البقاء ونعدها من مفاخر نهضتنا الحديثة .

لست من القائلين بمحاربة كثرة النقود عندنا ، فهذه الكثرة التي يسميها الاقتصاديون بالتضخم ليست بالضارة لذاتها ، وإنما ضررها يرجع الى كونها لا تتناول الناس جميعا بنسبة واحدة . فقد سعد بها قوم وشقي بها الفلاح وهو أحق الناس بأن ينعم بالتضخم . هذا

الفلاح يجب أن نرفع أجره إذا كان أجيرا وأن نعمل على زيادة غلة أرضه إذا كان مزارعا . لا أنكر أن كثرة النقود لها أضرارها ولها ضحاياها، إلا أنه يجب ألا نغفل عما فيها من مزايا يجب الاستفادة منها . فمن فوائدها أننا نستطيع سداد ديوننا بعملة منخفضة القيمة ، وإقامة الصناعات التي نحن في مسيس الحاجة اليها .

غير أنه لا يفوتنا أن نلفت الأنظار إلى ضرورة الاحتياط للغد. فليدخر كل منا ما يستطيع ادخاره ليستعين به على عوادى الأزمات التي تحدث عادة عقب الحروب ، ولا نسرف في التفاؤل كما أسرفنا في الحرب الماضية فلا نشترى بالتقسيط فقد تحل الأقساط في أوقات شداد، ولا نستأجر بإيجارات مرتفعة نعجز عن سدادها إذا عادت الأسعار سيرتها الأولى.

لقد كانت لنا في الحروب الماضية أخطاء يجب ألا نكررها ، وكانت لنا دروس يجب الانتفاع بها .

ولنذكر أننا قد بدأنا نهضتنا بعد الحرب الماضية ، وعلينا أن نتمها بعد هذه الحرب الحاضرة .

زكريا مهران